◆ أثر اليتيمة فى أدب الأندلس

أكثر ما عُثر عليه فى التراث الأندلسى من كتب التراجم والأخبار يرجع تأليفه إلى عهد ملوك الطوائف وما يليه ، وأَقَلُّه يتقدم هذا العهد لأئمةٍ من سابقى الكتَّاب ، وأنت حين تقرأ هذا الكثير مما صدر فى العهد الأخير تجده يكاد أن يكون متشابهًا ، فليست هناك فروق بعيدة بين كاتب وكاتب ، وكأنهم يصدرون جميعًا عن مورد غير مختلف ، ولا ننكر أن لكل كاتب ما ينفرد به من السِّمَات التى لا تخفى على البصير المتيقظ ، ولكن الطابع العام مع ذلك واحد ، فَجُل هذه الكتب تميل إلى المبالغة والإسراف ، وتتخذ من التراجم الإنسانية معرضًا للبديع بسجعه وجناسة ، حتى لتكاد الحقائق الذاتية تختفى فى طيات هذه الزركشة الشائعة ، وهى ظاهرة هامة تحتاج إلى تعليل وتحليل .

لقد وفدت إلى الأندلس من المشرق كتب الأعلام من أئمة التأليف ، وتداول الأندلسيون آثار ابن المقفع ، والجاحظ ، وأبى الفرج الأصفهانى ، وأبى حيان التوحيدى ، وأضرابهم من ذوى الأسلوب الحى ، والتفكير الخصب ، ولكن أثر هؤلاء الأئمة لم يكد يتضح فيما نُشر من الكتب فى عهد الطوائف وما يليه ، واتضح أثرُ كِتاب ذائع ، تقبله الأندلسيون بارتياح ، وطفقوا ينهلون منه ويعبُّون ، واتخذه الأكثرون نمطًا عاليًا يُحتذى فى صناعة التأليف ، ذلك الكتاب الذائع هو «يتيمة الدهر» بأجزائه الأربعة لأبى منصور الثعالبى – رَحِمَهُ الله تعالى .

وأنت حين تبحث عن سر ارتياح القوم لصاحب اليتيمة وولوعهم باقتنائه تجد لديك ما تقول ، فالنثر العربى لعهد الثعالبى كان قد تطور من الطبع إلى الصنعة ، ومال به الخوارزمى ، والصابى ، وابن العميد ، والصاحب ، والهمذانى ، إلى ضروب من التكلف تعمد إلى الحلية الظاهرة ، والزينة البارزة ، وتغفل الاستشفاف والتبصر ، وتخطئ الإصابة اليقظة للتعليل والتحليل ، وجاء الثعالبى فتأثر بسابقيه الأقربين ، وكان له من ظروف نشأته واتجاهه ما حَبَّبَ هذا اللون إلى قلبه ، إذ إن بلاغة اللفظ وحدها – فى أضيق حدودها المتعارفة – كانت هى التى تأخذ بمجامع تفكيره ، ونظرة إلى مَنْحَاه فى التأليف توضح هذا الاهتمام ، فكتاب فقه اللغة ، وكتاب الكنايات ، وكتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، كلها تشير إلى اهتمامه الجزئى بالتراكيب اللفظية ، وقد يكون هذا بدعة العصر أجمعه ، إلا أن الثعالبى حين نقل هذا الولوع الفنى بالصنعة اللفظية من ميدان الرسائل والمقامات إلى ميدان التأليف العلمى قد فتح الطريق إلى اتجاه جديد فى التأليف ، ومهما قيل عن تسويغ هذا الاتجاه ، فليس هو الطريق المفيد .

انتقل كتاب اليتمة إلى الأندلس فأحدث دَوِيَّهُ ، وأرّخ الكتاب يوم صدوره ، واحتفلوا باستقباله احتفالاً لم يتيسر لأكثر الوافد من الآثار ، وتعليل ذلك الاهتمام قريب غير بعيد ، فمناظر الأندلس توحى بالزينة ، وحضارة الأندلس قد أوجبت تنميق الأثاث وتجميل الرياض ، وتحلية القصور والأبهاء ، ثم انتقلت إلى اختراع الموشحات فى دنيا النَّظْم ، ومن الطبيعى أن تنتقل إلى استحسان البديع فى دنيا النثر ، أَضِفْ إلى ذلك أن أكثر القائمين بكتابة الرسائل لدى ملوك الأندلس أدباء وفقهاء فى وقت واحد ، وولوع هذا النوع من الكاتبين بالبهارج اللفظية أشد وأكثر ، ولسنا ننكر أن منهم أدباء خلصاء ، ترنح أعطافهم روائع الأدب الأصيل ، ولكن ماذا يصنع القليل أمام الكثير ؟

جاء كتاب الثعالبى فأحدث دويه ، وأخذ أصحاب التراجم يحتذونه مباهين .. وإذا قلتُ أصحاب التراجم فإنى أعنى التراجم السياسية والأدبية معًا ، لأن أكثر حاكمى الأندلس أدباءٌ وشعراءٌ ، بل كانت الوزارة فى أكثر سُبلها لا تلتمس أصحابها فى غير الأدباء والشعراء ، فكل شاعر يطمح للوزارة ، وكأن الشعر والأدب من أسلحة السياسة

والحكم ، لذا كانت كتب التراجم من سياسية وأدبية متشابهة متآخية ، وقد وجد فى المشارقة من وصلوا إلى الوزارة عن طريق الأدب ، ولكنهم بالقياس إلى أولئك نفر قليل .

إن ولوع الأندلسيين بالزينة والزخرف - كسببٍ نفسى ترد إليه هذه الظاهرة - هو الذى أتاح لكتاب اليتيمة أن يصبح مثالاً يُحتذى ، وإلا فإن شيخ مؤرخى الأندلس وسيد كتابها ابن حيان كان جديرًا أن يكون رائد المدرسة التاريخية فى إقليمه لو وجد من تلاميذه وحفدته من يتذوقون نهجه ، أو يحاولون السير على منواله .. ولك أن تعجب حين ترى ابن بسام فى الذخيرة ينقل آراء الرجل وأقواله مسهبًا مطيلاً ، فإذا عاد إلى نفسه تداركته عدوى اليتيمة ، ونسى الأفق المشرق الذى كان ينقل من أضوائه ، أيكون ابن بسام أعجز من أن يحاكى ابن حيان ؟ هو كذلك بلا شك ، ولو أنه حاكاه فى زمنه المتأخر ما وقع حديثه أطيب موقع لدى من يرهفون أسماعهم لصلصلة الحلى ورنين الأسجاع .

كان ابن حيان (٣٣٧هـ - ٤٦٩هـ) جزل العبارة ، شديد العارضة ، قوى الآصرة ، تلمس فى أسلوبه قوة وتدفقًا ، وتراه نسج وحده فى براعة التلوين ، وقوة التصوير ، فإذا نظرت إلى أحكامه شاقك أن تجد بُعْدًا فى الغَوْر ، وبراعة فى النفاذ ، ودقة فى الملاحظة ، وهو جاحظى التركيب فى تدفقه وانصبابه ، وكثيرًا ما ينجو من استطراد الجاحظ إلى الموضوعية المركزة المحددة ، وكاتب فحل من هذا الطراز لا يرحب به العامة من القارئين ترحيبهم بالكاتب السهل المتناول ، القريب الأخذ ، ولعل ذلك مما أضاع مؤلفاته على كثرة أجزائها وجودة منحاها ، إذ لو رزقت سوادًا كبيرًا من القارئين لتزايد نسخها ، ووصول إلينا منها شىء ذو بال ... لأننا لم نر الرجل حقًّا إلا فيما نقله عنه صاحب الذخيرة - وما أكثر ما نقل - وإلا فى ثلاثة أجزاء من كتاب المقتبس فقط ، أما بقية الأجزاء العشرة ، وأما كتاب المتين ذو المجلدات الستين ، وأما كتاب فقهاء قرطبة ، وأما كتاب المآثر العامرية ، فَوَأَسَفَاه !

يقول المؤرخ الهولندى (دوزى) عنه : «إنه يسوق التاريخ مساق مَنْ يُبدى رأيه وحُكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء ، كما سيفعل من بعده نقادون ، كابن سعيد ، وابن خلدون ، ويمتاز ابن حيان إلى

ذلك بأسلوب ناصع لا يهبط إلى الركاكة ، ولا يقع كذلك فى التفصح والإسراف فى قعاقع الألفاظ ، وبرغم التزامه هذه السهولة فإنه لا يهمل جانب الجمال فى أسلوبه ، ويبعث فى كلامه دائمًا حماسة وغنىً ، وطابعًا غالبًا من الجد ، ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد بين مؤرخى العرب إلا القليلين الذين نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من نقدمه عليه »[1] .

أجل ، لن نجد من مؤرخى العرب من نقارنه به إلا كاتبًا كابن خلدون ، أما الذين أكثروا من التراجم الأندلسية من بعده فقعدت مواهبهم المتواضعة دون اللحاق به ، وفيهم من جَرُءَ على انتقاده ، فابن بسام : يقول عنه[2] :

«ومع ذلك فقد كان سهمًا لا ينمى رميه[3] ، وبحرًا لا ينكش[4] آذيه ، ولو سكب الماء ما نقع ، أو تعرض لابن ذكاء ما سطع ، يتناول الأحساب قد رسخت فى التخوم ، وأنافت على النجوم ، فيضع منارها ، ويطمس أنوارها بلفظ أحسن من لقاء الحبيب ، غب الموعد ، وأمكن من عذر الطبيب عند العود ، فرب شامخٍ بأنفه ، ثانٍ من عِطْفِه ، قد مر من كتابه بفصل جرده لوضع حسبه ، وخلده أحدوثة باقية فى عقبه ، فَيَرِدُهُ ورودَ الظمآن الرنق ، ويلبسه لبس العريان الخلق » .

فصاحب الذخيرة يأسى على لذعات ابن حيان ونقداته ، فهو يريد منه أن يذكر المحاسن ، ويغضى عن المساوئ ، وقد نسى ابن بسام شيئًا مهمًّا ، هو أن من كان فى ألمعية ابن حيان وقوة بصيرته وشمول نظرته يرى كثيرًا من الهنات فيمن يتناول ، ولابد أن يقول رأيه مستندًا إلى تجربته الواسعة ، وخبرته الأصيلة بالنفوس ، قد يكون ابن حيان أكثر من النقد وأسرف ، فالصفحات التى اقتبسها ابن بسام تحت عنوان : (المختار من قوله) ، تضرب فى النقد إلى مدى متطاول ، كاد أن يكون سبابًا ! حتى ليفهم القارئ أن كتابته

---

(١) الأدب الأندلسى للدكتور هيكل ، ص ٣٩٣ ، نقلاً عن تاريخ الفكر الأندلسى ترجمة مؤنس ٢١١ .

(٢) الذخيرة ١/ ٢ ، ص ٨٥ .

(٣) يقال : نَمَى الصَّيْدُ ، أى : غابَ عن الصائد والسهم فى جسمه .

(٤) يقال : فلان بحر لا يُنْكش ، أى : لا ينفد كَرَمُهُ .

جميعها من هذا الطراز ، ولكن متابعة ما طُبع من الذخيرة ، وما تُدُووِل من أجزاء المقتبس تفهمنا أن ابن حيان ناقدٌ منصف ، يسجل الشر والخير معًا ، وهو ما لا يرتضيه ابن بسام ، وقد تعرض الدكتور أحمد أمين إلى الفصل فى هذه القضية فقال فى ظهر الإسلام :

«ونحن إلى مذهب ابن حيان أقرب ، فالمؤرخ عليه أن يتحرّى الصدق فى المدح والذم ، والنافع والضار ، أمَّا اقتصاره على المدح دون الذم (كما يريد ابن باسم) . فتقصير فى رواية الحق ، وقول لنصف الحق ، وليس الرجل المشهور فى التاريخ ملكًا لنفسه ، بل أصبح ملكًا لشعبه ، يشرحه المؤرخ الحصيف كما يشرح الطبيب المريض ، فنحن مع ابن حيان لا ابن بسّام .. وكثيرًا ما ضقت ذرعًا بالمؤرخين الذين لا يذكرون إلا المحامد ، ويغضُّون الطرف عن المفاسد ، بل قد يخلقون المدائح خلقًا ، وإن لم يصح نسبتها إليهم حقًا »[1] .

ولو تعمقنا بواعث التأليف لدى ابن حيان وابن بسام لوجدنا كلا الرجلين منطقيًّا مع نفسه ، فابن حيان ألف كتابه ليصدر أحكامه كما يراها عقله البصير ، ويقول بعض الكاتبين عنه : إنه لم يقصد إذاعة كتبه بين الناس ، بل جعلها مذكرات خاصة لورثته ، كى يستفيدوا منها ، وينتفعوا بعظاتها .. وأنا أستبعد هذا ولا أقبله ، لأن المؤلف الذى يكتب أكثر من مائة مجلد فى التاريخ لا يقرّ بينه وبين نفسه أن تظل هذه الآثار الحافلة ملكًا لعشرة من القراء أو عشرين ، ولكنه يقوم بمجهوده الضخم ليُسمع الناسَ ما يريد .. وإذا كان ابن حيان قد اعترف بهذا الضن حين قال عن بعض كتبه :

«.. وكنتُ اعتقدتُ الاستئثار به لنفسى ، وخبأة لوالدى ، والضن بفوائده الجمة على مَنْ تنكَّب إحمادى به إلى ذمى ومنتقصتى ، طويتُ على ذلك كشحًا ، وأمضيته عزمًا إلى أن رأيت زفافه إلى خطبة سنيّه أتتنى على بُعد الدار من أكرم خاطب ، وأَسْنَى ذى هِمَّة ، الأمير الموئل : يحيى بن ذى النون »[2] . فليس لنا أن نجعل هذا الاعتراف قضية

---

(١) ظهر الإسلام ج ٣ – ص ٢٧٨ .

(٢) النخيرة ١/ ٢ ، ص ٨٨ .

مسلمة لشيء واحد ، لأنه يخالف طبائع الأشياء ، هذا شأن ابن حيان فى تأليفه ، أما ابن بسّام فقد ألف الذخيرة لينصف أهل الأندلس ، ويقف بهم مع المشارقة فى مستوى واحد، ومؤلف هذه وجهته لا يتسنى له أن يسطر ما يعرف من المآخذ ، وإلا ما استطاع أن يبلغ بمؤلفه ما يريد .

لقد أطلنا القول شيئًا مَّا عن ابن حيان ، وهو كاتب يستحق الالتفاف دون نزاع ، وقد أنصفه الكاتب المفضال الأستاذ على أدهم ، حين ذكر فى معرض تبرئته من التحامل أنه وإنْ كان ينتصر دائمًا للخلافة الأموية «فهو أوسع أُفقًا ، وأكثر أمانة ، وأشد احترامًا للحق من أن يكيل لهم المدح جزافًا ، ويخلع عليهم إيراد الثناء بلا حساب ، وقد عَدَّدَ فى الجزء الثالث من كتابه (المقتبس) مناقب الأمير عبد الله ، وأبدع فى وصفها ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، وأضاف إلى ذلك ذكر عيوبه ونقائصه ، وأحصى عليه أخطاءه وجرائمه » .

«ولا أعرف مؤرخًا من مؤرخى المشارقة يقوم لابن حيان فى قوة التصوير وبراعة التلوين ، مع الأصالة والطرافة ، وهو فى قوة تصويره ، وصرامته وصراحته ، واستمساكه بالموازين الأخلاقية ، يذكرنى بالمؤرخ الرومانى العظيم تاسينوس »[1] .

إن هذا المؤرخ الفذ الذى يقول عنه صادقًا الأستاذ على أدهم : إنه لا يعرف مؤرخًا من مؤرخى المشارقة يقوم له .. لم يستطع بآثاره أن يقف فى وجه كتاب اليتيمة حين تخطى الشرق إلى الأندلس ، فسحر الناسَ ، وبهر الكُتَّابَ !

وقد توالى كتّاب التاريخ من بعده – أمثال ابن الفرضى ، والحافظ الحميدى ، وابن بشكوال ، وابن الأبّار ، وابن عبد البر ، وابن بسّام ، والفتح بن خاقان ، وابن سعيد ، والحجارى ، وعبد الواحد المراكشى ، وابن الخطيب ، والمقَّرِى ، ومن يلفُّ لفهم من المؤرخين – فقصروا جميعًا عنه وما حاذوه ، ولا نستطيع أن نخص كل هؤلاء بالتحليل ، ولكننا نعمد إلى اثنين ممن رُزقوا الحظوة فى الذيوع ، والمعاصرة فى الحياة ، لنتخذ منهما دليلاً على أثر الثعالبى فى كتابة التاريخ الأندلسى ، ثم أثرهما تبعًا لذلك فى انتقال

---

(١) مجلة الثقافة – عدد ٦١٤ .

العدوى البديعية إلى من يليهما من الكتَّاب ، وهما : ابن بسام صاحب الذخيرة ، والفتح ابن خاقان صاحب القلائد والمطمح ، وما أغفلنا ابن الخطيب عن انتقاص ، ولكن فَضْلَهُ ذائع ، وأسلوبه مشتهر ، وهو بعد لاحِقٌ بهما على أنه تأثر بثلاثتهم جميعًا ، إذ قرأ ما خلفوه .

لقد ذكر ابن بسَّام فى مقدمة كتابه أنه اتخذ تقسيم الثعالبى منهجًا له ، فهو يقسّم الذخيرة أربعة أقسام ، كما قسّم الثعالبى اليتيمة أربعة أقسام ، وهذا التقسيم جغرافى كتقسيم صاحبه ، فلكل إقليم شعراؤه مهما اختلفت منازعهم الأدبية ، فقسم لقرطبة وما يليها من وسط الأندلس ، وقسم لأشبيلية وما جاورها من الغرب ، وقسم لبلنسية وما يليها من الشرق ، وقسم أخير للوافدين من المشارقة إلى الأندلس ، وهكذا سار سير الثعالبى حين جعل اليتيمة أقسامًا أربعة ، قسم لأشعار أهل الشام وما يجاورها ، وقسم لأشعار أهل العراق ، وقسم فى محاسن أشعار أهل الجبل ، والقسم الرابع فى محاسن أهل خراسان وما وراء النهر ، وهذا الاحتذاء السافر يتضمن اعتراف ابن بسام بمنهج أستاذه ، لأن الثعالبى كما نقل صاحب الوفيات عنه :

«كان فى وقته راعى تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ، ورأس المؤلفين فى زمانه وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الإبل ، وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب طلوع النجم فى الغياهب»[1] .. هذا الاحتذاء المقصود دفع المعاصرين من باحثينا الأفاضل إلى موازنات مختلفة بين الرجلين ، فالدكتور طه حسين يقول فى مقدمة الذخيرة[2] . «وهو يصطنع ما اصطنعه الثعالبى من السجع والتأنق فى تقديم الشعراء والكتَّاب ، والتعريف بهم ، والثناء عليهم ، والنقد لهم ، ولكنه بعد هذا كله يخالف الثعالبى فى أمر ذى خطر ، فهو أبعد منه نظرًا ، وأنفذ منه بصيرة ، وأعمق تفكيرًا ، وهو على تكلفه فى اللفظ لا يخدع بالرواء الظاهر عَمَّا وراءه من جودة المعنى أو رداءته ، ومن صواب التفكير أو خطئه ، ولعله أن يكون أفقه من الثعالبى

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٢١ .

(٢) ج ١ ص ب .

بالحياة الأدبية فى إقليم من الأقاليم ، فهو أدق منه ملاحظة لما يكون من الصلة القوية بين طبيعة الإقليم، وما ينتج فيه من أدب، بل بين طبيعة الأجناس البشرية وما تنتج من أدب، بل بين ما يكون من مجاورة الأمم المختلفة وما تنتج من الأدب ... إلخ » .

والأستاذ على أدهم يقول[1] : «ويبدو لى أن الثعالبى كان فى فضله وسعة اطلاعه أكثر خضوعًا لأحكام القدماء من ابن بسّام ، وأنه كثيرًا ما يخدعه البهرج ، ويحسب الشحمُ فيمن شحمه وَرَم ، أما ابن بسام فإن نافذ النظر ، سليم الذوق ، بارع الناقدة ، دقيق الملاحظة ، لا يخدعه الطلاء المموه ، ولا تضل تفكيره الألفاظ الضخمة المدوية ، أو الطنطنة العالية » .

ومن يقرأ الذخيرة يعرف أن مؤلفها يعلم كل العلم موقفه من صاحب اليتيمة ، فهو على اعترافه بمتابعته يعلن أنه خالفه فى أمرين جوهريين ، الأول ما أفاض فيه ابن بسام حين قال[2] :

«وقد وعدت فى صدر هذا الكتاب بأن أتخلل أشعار الشعراء ، ورسائل الكُتَّاب والوزراء ، بما عسى أن يتعلق بأذيالها ، ويساير أفياء ظلالها ، من أنباء فتن ذلك الزمان البعيد – كان – طلقها ، المفرق لشمل الأمر فى هذه الجزيرة نسقها ، ونلمع بنبذ من مشهور وقائعها ، ونشير بأسماء طوائف زوابعها وتوابعها ، ليجمع هذا المجموع بين الشعر والخبر ، جمع الروضة بين الماء والزهر ، والزمان بين الأصائل والبكر ، فإنى رأيت أكثر ما ذكر الثعالبى من ذلك فى يتيمته محذوفًا من أخبار قائليه ، مبتورًا من الأسباب التى وصلت به وقيلت فيه ، فأمل قارئ كتابه منحاه ، وأحوجه إلى طلب ما أغفله من ذلك فى سواه » .

فهو ينعى على الثعالبى إغفال الحوادث والتواريخ ، ثم ينعى عليه مرة أخرى ذكر الفاحش من الأهاجى ، والماجن من القول ، فيقول :

---

(١) فى العدد ٦٦٠ من الثقافة .

(٢) الذخيرة – المجلد الأول – القسم الأول – ص ٢٣ .

«والقسم الثانى هو السباب الذى أحدثه جرير وطبقته ، وكان يقول إذا هجوتم فاضحكوا ، وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتًا ، ولا غيرت به قبيلة ، وهو الذى صُنّا هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شىء منه ، فإن أبا منصور الثعالب كتب منه فى يتيمته ما شأنه وَسْمُه ، وبقى عليه إثمه »[1] .

ونسأل بعد ذلك : هل تقيد ابن بسام بمنهجه ؟ أما الذى يعرفه قارئ الذخيرة – ما نشر منها – فهو أنه لم يقدر على الإحاطة بالتواريخ والأخبار جميعها ، ولكنه بذلك الجهد المستطاع ، وبقى ما بقى مما يتطلب البحث الجديد ، كما أن قارئ الذخيرة يعرف أن ابن بسام ترخص فى ذكر بعض الماجن من القول برغم حملته على الثعالبى ، بل العجيب أنه قبل هذه الحملة بصحيفتين فقط (من ٦١) يذكر أبياتًا قذرة يقول إنها من الكنايات المليحة التى تعرض بأمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وكان له عنها محيد .

على أن ابن بسام مع هذا لا يقارن بمعاصره الفتح بن خاقان بحال ، مهما اضطرت معاصرتهما كثيرًا من النقاد إلى هذه المقارنة ، وأن عظم تأثرهما معًا باليتيمة ، ويكفى أن نلخص السبب فى جملة واحدة ، هى أن ابن بسام جاد والفتح هازل ، فليس إلى التقائهما من سبيل .

ومن المفيد أن نوضح وجهة نظرنا فى ذلك ، فننظر إليهما رجلين وأديبين ، لنرى الفتح يندفع فى استهتاره إلى ما يشين ، ثم يتطاول على الناس بالحق وبالباطل معًا ، وهو حين عمد إلى التأليف لم يصدر عن رغبة فى اجتلاء حقائق الأدب والتاريخ ، ولكن اتخذ قلمه وسيلة للتكسب المقيت ، فهو يرسل إلى أدباء عصره ، ومشهورى مصره ، يحدثهم عن رغبته فى تأليف كتاب أدبى يتحدث عنهم ، ويلتمس ما لديهم من الشعر والنثر ، ثم ينتظر ما يجىء ، فإن كان الرد مصحوبًا بالبدر الثمينة والهدايا النفيسة أطلق أرسان المديح إلى أبعد الأشواط ، وإن تقاعس عنه ذو الشمم – ممن يأنفون أن يكونوا لعبة فى يد لاعب ، أو يترفعون أن يشتروا المدح الزائف بمالٍ مقرر مفروض – فإن الفتح يشويهم بسياطه ، ويستعدى عليهم الحكام والناس ، ويصدر فى كل ذلك عن ذوق مريض .. لقد

---

(١) الذخيرة – القسم الثانى من المجلد الأول – ص ٦٢ .

أرسل إلى الوزير الفيلسوف النابغة أبى بكر بن الصائغ - المعروف بابن باجه - يسأله بعض أشعاره ، مع ما يطمع فيه من المال ، فما التفت إلى دعوته ، ورأى فيه وصوليًّا يبتز المال من طريق بغيض ، ومثل ابن باجه لا يتأتَّى له أن يقدر سلوك الفتح وأدبه معًا ، فهو فى الأول متسول محترف ، مع ما عُرف عنه من العربدة ، واصطحاب السفلة ، وغشيان الريب ، وهو فى الثانى ينمّق أسجاعًا فارغة ، لا يراها الفيلسوف تهدف إلى جلاء حقيقة مطموسة ، أو تساعد على فهم ظاهرة مستعصية ، فما الذى يجذبه إليه مع هذه القبائح ؟ لقد عزّ على الفتح أن يهمل ويغفل ، فكتب فى القائد فصلاً عن الفيلسوف ، أملاه الحقد والضغينة والثأر ، قال فى مقدمته[1] : «هو رمد عين الدين ، وكمد نفوس المهتدين ، اشتهر سخفًا ومجونًا ، وترك مفروضًا ومسنونًا ، فما يتشرع ، وما يأخذ فى غير الأضاليل وما يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ، ولا أظهر مخيلة أنابة ، ولا استنجى مِنْ حَدَثٍ ، ولا أشجى فؤاده بتوار فى جَدَثٍ ، ولا أقر بباريه ومصوره ، ولا فردٌ يباريه فى ميدان تهوره ، الإساءة لديه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر فى تلك التعاليم ، وفكر فى إجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم ، واقتصر على الهيئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترأ عند سماع النهى الإيعاد ، واستهزأ بقوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ)[سورة القصص ٨٥]» .

لو كان الفتح يعتقد ذلك فى ابن ماجه عن صدق وإخلاص لوجد العذر من الناس فى تسجيل ما سطر ، وافق الحق أو جافاه ، ولكنه كشف نفسه حين تراجع الوزير عن موقفه منه كفًّا لشرّه ، فنفحه ببعض المال ، فأطفأ جذوة غضبه ، واندفع إلى كتابة جديدة ملأها بالثناء الحافل ، ولم يدَّخر وسعًا فى تنسيق صفحة مضادة للأولى فى كتابه مطمح الأنفس[2] ، يقول فيها عنه :

---

(١) قلائد العقيان ص ٩٢م هندية .

(٢) مطمح الأنفس ص ٤٢ ط هندية .

«نور فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار ، وتأرجت من طِيبِ ذكره الأمصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فننًا وتهدل ، إذا قدح زند فهمه أَوْرَح بشرر للجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذى هو للإيمان شقيق ، والجد الذى يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يود عطارد أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشترى أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبات والنحور ، وتدعيه مع نفاسه جوهرها البحور » .

هذان نصّان متعارضان يكشفان عن معدن الرجل ، وهما أيضًا يكشفان عن خصائص أدبه ، ولا يشرفانه فى مجال الموازنة بينه وبين معاصره ابن بسام ، إذ إن صاحب الذخيرة قد تجافى عن بعض أخطاء يتيمة الدهر حين حاول تقييد الحوادث وتسجيل التواريخ ما استطاع .. أما الفتح فقد فهم بتأثير اليتيمة من ناحية ، وطبيعة الجو السائد من ناحية ثانية ، أن الكتابة معارض ألفاظ ، ومتاحف أسجاع ، وتطبيقات مدرسية للجناس والطباق والتورية ، أما أن تكشف عن حقيقة ، أو توضح فكرة ، فهذا ما لا يبتغيه الفتح أو يعتقده .. ومع هذا فقد وجد من الأدباء من يقبلون تنمية ، ويرتضون تلفيقه ، فلسان الدين بن الخطيب يقول عنه : «كان آية من آيات البلاغة ، لا يُشق غباره ، ولا يُدرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعانى وثيقها ، لعوبًا بأطراف الكلام ، معجزًا فى باب الحلى والصفات » . وابن سعيد يقول فى المغرب عنه : «الدهر من رواة قلائده ، وحَمَلة فرائده ، طلع من الأفق الأشبيلى شمسًا طبق الآفاق ضياؤها ، وعم المشرق والمغرب سناها وسناؤها ، وكان فى الأدب أرفع الأعلام ، وحسنة الأيام ... وهو وأبو الحسن بن بسام صاحب الذخيرة فارسَا هذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييدًا ، وعلمًا مفيدًا ، وإطنابًا فى الأخبار ، وإمتاعًا فى الأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقًا وتعشقًا بالأنفس ! » .

ويزول العجب من هذين القولين حين نعرف أن لسان الدين بن الخطيب وابن سعيد المغربى كليهما من تلاميذ الثعالبى وهواة اليتيمة ، وخطتهما فى التأليف ترتضى الإكثار

من القول ، والمباهاة بالزركشة اللفظية ، والزخرفة البديعة ، وذلك داء العصر ومنحاه ، فلا غرو أن هَامَا بأسلوب الفتح بن خاقان! ولو رجع بهما الزمن إلى هذا العصر لسمعا الدكتور أحمد أمين يقول عن صاحب القلائد فى ظهر الإسلام :

«وأسلوب الذخيرة أقرب إلى نفوسنا ، فهو لا يلتزم السجع كما يفعل ابن خاقان ، وأسلوب الفتح هذا أجوف ، يلعب بالألفاظ والاستعارات لعب البهلوان !»[1] .

لقد شغلت منذ أعوام بدراسة الفلسفة الإسلامية بالأندلس ، فطالعت نبذًا من آراء ابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد ، وعرفت أن هناك فيلسوفًا آخر هو الفضل بن شرف ، فحاولت أن أقف على سيرته ، وطفقت أبحث عنه فى كتب التراجم ، حتى عثرت على قول الفتح :

«الناظم الناثر ، الكثير المعالى والمآثر ، الذى لا يدرك باعه ، ولا يترك اقتفاؤه واتباعه ، إنْ نَثَرَ رأيت بحرًا يزخر ، وإنْ نَظَمَ قَلَّدَ الأجياد درًّا تباهى به وتفخر ، وإنْ تكلم فى علوم الأوائل بهرج الأذهان والألباب ، وولج منها فى كل باب ، وقد كان أول ما نجم بالأندلس وظهر ، وعرف بحوك القريض واشتهر ، تسدد إليه السهام ، وتنتقده الخواطر والأوهام ، فلا يُصاب له غرض ، ولا يوجد فى جوهر إحسانه عرض ، وهو اليوم بدر هذه الآفاق ، وموقف الاختلاف والاتفاق ، مع جرى فى ميدان الطب إلى منتهاه ، وتصرف بين سماكه وسهاه ، وتصانيف فى الحكم ألف منها ما ألف ، وتقدم فيها وما تخلف ، فمنها كتابه المسمى «يسر البر» ، ومنها الكتاب الملقب بنجح النصح ، وسواها ، من تصانيف اشتمل عليها الأوان وحواها» . هذا كل ما قاله الفتح ، وقد أخذتُ أضرب كفًّا بكف بعد قراءته ، وأسأل نفسى ماذا قدم لى المؤرخ الكبير غير بديع وأسجاع وزركشة وابتداع ؟ وكان مما أسعدنى أن أجد الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة البيان – رحمه الله – يحار مع الفتح حيرتى ، وينشر مقالاً بالرسالة – (١٤٩) سنة ١٩٣٦– يقول فيه ، بعد أن نقل كلام الفتح : «وقد جرى الفتح فى هذه الترجمة على شنشنته فى سائر

(١) ظهر الإسلام – ج ٣ ، ص ٢٨٣ .

تراجمه ، فلم يذكر اسم المترجم له ، ولا اسم أبيه ، ولا منشأه ، فضلاً عن أنه أغفل تاريخ مولده ووفاته ، وكذلك لم نر لغير الفتح ترجمة لهذا الأديب الكبير يصح أن تُسمى ترجمة يعوّل عليها » .

تأصلت إذن طريقة اليتيمة فى المؤلفات الأندلسية ، احتذاها الفتح شبرًا بشبر ، ووقع فى بعض أخطائها ابن بسام ، ولولا تشبعه بمؤلفات ابن حيان لجعلها هو الآخر مثالاً يحتذيه ، أما الحجارى وابن سعيد والمراكشى وابن الخطيب والمقرى ، وأضرابهم من مؤرخى عصر الطوائف وما يليه ، فقد أصابهم من تأثيرها الساحر ما لا نزال نرى عقابيله فيما نقرأ لهم من التصانيف . ولم يقتصر نمط اليتيمة على الأفق الأندلسى وحده ، ولكن بريقه الساطع قد جذب إليه مترجمى المشارقة ممن فُتنوا به ، ونسجوا على منواله ، لقد حاول أبو منصور أن يجعل اليتيمة بأجزائها الأربعة ذيلاً لكتاب البارع فى أخبار الشعراء ، الذى تقدم به هارون بن على بن المنجم (المتوفى ٢٢٨هـ) ، ثم جاء من بعد الثعالبى أبو الحسن على بن الحسن الباخرزى (المتوفى سنة ٤٦٧ هـ) ، وألف كتابه (دمية القصر) ، وقد جعله ذيلاً لليتيمة نَهج به نهجه ، وقلد عبارته وأسجاعه ، ثم جاء أبو المعالى سعد بن على الوراق الخطيرى (المتوفى ٥٦٨هـ) ، وصنف كتاب (زينة الدهر) ، جاعلاً إياه ذيلاً على كتاب الباخرزى دمية القصر ، ثم ظهر الكاتب الأشهر العماد الأصفهانى (المتوفى سنة ٥٩٧هـ) ، فأصدر (جريدة القصر وجريدة أهل العصر) ... وكل هذه الذيول المطولة تنهل من مورد الثعالبى ، وتنهج نهجه ، وهى بعد مشرقية لا أندلسية ، ثم توالت المؤلفات التاريخية تحمل الطابع البديعى ، وكأن العصر المملوكى فى الشرق وعصور الزوال بالأندلس قد استطابت هذا اللون وارتضته عن إجماعٍ لا يخرج عنه إلا كاتب عبقرى كابن خلدون .

كان أبو منصور الثعالبى يبذل جهده الحافل فى جمع الأشعار البعيدة ، وسؤال من يلقاهم عَمَّنْ يعرفون من الشعراء ، وإذا صادف أديبًا مصريًّا أو أندلسيًّا أو فارسيًّا فرح به ، وأخذ ينقل عنه ما يروى . وأنت تقرأ بعض تراجمه للشعراء ، فتجده لا يكاد يعرف عن الشاعر شيئًا إلا ما سمع من أشعار ، فيضطر اضطرارًا أن يكتب له ترجمة إنشائية تنحو

منحى المقامات ، وتصلح لكل شاعر ينظم الشعر ، كما تباع الملابس فى المحالِّ التجارية ، ليشترى منها الآباء لأبنائهم غيبًا ما يخالونه يتناسب ، وقد يلبس الابن حلتّه المشتراه فإذا بها ليست مما يصلح له ، ولكنه مضطر إلى ارتدائها ، كما اضطر القارئ أن يقبل تراجم الثعالبى للشعراء فى اليتيمة ، وإنْ لم تبرز قسماتهم وشياتهم على اتضاح ، والحق أن صاحب اليتيمة بذل طاقة قوية فى حفظ تراث الشعراء من بنى عصره ، ولولاه ما استطعنا أن نعرف شيئًا عن أكثر من روى لهم من الشعراء ، لأن المغمورين لديه أضعاف أضعاف المشتهرين ، ولكن طريقته فى السؤال عن الأدباء واستهدائهم بعض أشعارهم قد انتقلت إلى مَنْ بعده ، فكان ابن بسام يكتب لأدباء زمانه ، طالبًا نماذج قوية من أشعارهم ليضمها إلى الذخيرة ، فيفد إليه ما يريد ، وكل مسئول لا محالة يهدى من قوله أطيب ما يستحسن فى رأيه ، وهذا حسن إذا جاء الأمر من بابه ، ولكنه انقلب تسولاً شائنًا على يد الفتح بن خاقان ، بل صار أداة إرهاب وهَجْو واستعداء ، وأذكر أن الطبيب الذائع ، والفيلسوف الماهر ، أبا العلاء زهر ، لم يقبل أن يجيبه على شىء ، فكتب الفتح رسالة فاحشة فى ثلبه ، وتقدم بها إلى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، مُحاوِلاً أن يتهمه بالإلحاد والمروق .. كما أن طريقة الثعالبى فى الاعتماد على الوافدين غير مأمونة ، فقد يروى أديب للشاعر ما ليس له عن قصد وعن غير قصد ، ولابد أن تكون هناك نماذج كثيرة فى اليتيمة ، والدمية ، والخريدة ، والذخيرة ، والقلائد ، والمطمح ، ليست لأصحابها على وجه التأكيد .. ومهما يكن من شىء ، فنحن فى معرض إنصاف الثعالبى نقرر أنه بذل أقصى ما يستطيع ، وأن هيامه بالأدب قد دفعه إلى تشييد معقل قوى من معاقله حَفِظَ جانبًا من تراث القرنين الرابع والخامس معًا .. أما قصور تراجمه وتراجم من بعده عن أن تقدم التاريخ الحى فى أكثر ما دبج ، فيواجهنا بمهمة خطيرة ، إذ ينبغى أن يحرص ناشرو هذه المجلدات من علمائنا المحققين على استيفاء النقص ما أمكن ، فلابد – إنْ صَدَقَ الناشرُ المحقق فى إخراجه – أن يضع فى هامش كل ترجمة ما يصل إليه جهده الباحث من أخبار صاحبها ، ذاكرًا ما وقف عليه من المراجع والمصادر .. ولك أن تتصور معى اليتيمة والجريدة وأضرابهما وقد عُولِجت هذا العلاج ، فأكملت ما تيسر من النقص ، وأصبحت

مرجعًا أدبيًّا وتاريخيًّا معًا ، ومن المحقق أن بعض من ترجم لهم فى هذه الموسوعات لانجد من المصادر المعاصرة ما يمدنا عنهم بشىء ، ولكن من المحقق أيضًا أن كثيرًا من هؤلاء قد كُتب عنهم ، فهم يتطلبون عناية المحقق واهتمامه ، إن كان كفئًا لعمله ، إذ من المقرر أن يضطلع بالنشر بحّاثة متمرس ، ضليع قرّاء ، أما الذين يكتفون بالنشر الخاطف فهم وَرَّاقُون !

لقد نشر الأستاذ الجليل أحمد يوسف نجاتى – رحمه الله – تسعة أجزاء من كتاب نفح الطيب عن دار المأمون ، قام بتحقيقها واستيفاء النقص فيما ورد من تراجمه ، فلم تتكاءده عقبة ما فى طريقه ، بل كان اطلاعه الثاقب الشامل – وإن أسرف أحيانًا – يمده بجميع ما يريد ، ولو صدق محققو التراث الأدبى صِدْقَ الأستاذ نجاتى لتلافوا النقص ، وقوّموا المائل ، ومهدوا الطريق .

★★★